موقع الشيخ التركماني
https://www.turkmani.com

مقال: المحور الخامس: الفلسفة والأدب رسالة ابن حزم في الرد على ابن النغريلة- دراسة وتحقيق

المصدر: مجلة مقاربات

بقلم: رضوان الخياطي

رقم العدد: 11

تاريخ الإصدار: 1 يناير 2013

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

https://www.turkmani.com

المحور الخامس: الفلسفة والأدب

رسالة ابن حزم في الرد على ابن النغريلة
دراسة وتحقيق

د. رضوان الخياطي

كلية الآداب والعلوم الانسانية

ظهر المهراز - فاس

مقدمة:

تأتي رسالة ابن حزم "في الرد على ابن النغريلة"[1] في سياق الرد على كتاب "في تناقض القرآن"، الذي ألفه اليهودي، والذي قدم فيه قراءات مغلوطة لمجموعة من الآيات القرآنية قصد من خلالها التطاول على ملة الإسلام والإساءة إلى الرسول (ص)، كما ورد على لسان ابن حزم: « أطلق الأشر لسانه وأرخى البطر عنانه (...) فألف كتابا قصد فيه، بزعمه، إلى إبانة كلام الله عز وجل في القرآن اغترارا»[2].

1) تحقيق اسم صاحب كتاب "في تناقض القرآن":

أ) الاختلاف حول هوية صاحب الكتاب:

لقد اختلف المؤرخون ودارسو الأدب حول هوية صاحب هذه الرسالة. فتضاربت الآراء حول اسمه العائلي والشخصي فهو ابن (نفريلة) في الأصل المخطوط من رسالة ابن حزم وابن (النغرالي) تارة و(النغرال) تارة أخرى في كتاب "الفصل بين الملل والأهواء والنحل": « وقد قررت على هذا الفصل أعلمهم وأجدلهم وهو شموئيل بن يوسف اللاوي الكاتب المعروف بابن النغرال في سنة أربع وأربعمائة... »[3]، وفي صفحة أخرى فإن المقصود هو« اسماعيل ابن يوسف الكاتب المعروف بابن النغرالي»[4] وابن (نغرالة) في "التبيان" "وأعمال الأعلام" وفي "أصول الإحاطة": « ذكر مقتل يوسف بن اسماعيل بن نغرالة الإسرائيلي »[5]، وابن (نغرلة) في مغرب ابن سعيد، وابن (نغدالة) عند دوزي وابن النغريلي في ذخيرة ابن بسام.

هذا الاسم إذا أطلق عنى أحد اثنين هما: صموئيل بن يوسف (إسماعيل أو أشموال عند ابن حزم في الفصل) المكنى بأبي إبراهيم. وابنه يوسف بن إسماعيل المكنى بأبي الحسين. والأول وزر لصاحب غرناطة حبوس ثم لابنه بادس وخلفه ابنه في خطته، والثاني – يوسف – هو الذي ثارت عليه صنهاجة وقتلته[6]. وبعض المصادر مثل "الذخيرة" و"النفح" و"البيان المغرب" و"مغرب ابن سعيد" يجعل المقتول هو إسماعيل، ويجعل الوزير الأول أباه ويسميه يوسف: «اسماعيل ابن يوسف بن نغرلة اليهودي من بيت مشهور في اليهود بغرناطة، آل أمره إلى أن استوزره باديس ابن حبوس ملك غرناطة، فاستهزأ بالمسلمين، وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها »[7].

أما الكتب العبرية فتحدد اسم الوزير الذي ثارت عليه صنهاجة بيوسف بن شموئل هنجيد الذي قتل في 31 دجنبر 1066م من طرف المغاربة، فيما يسمى بثورة البربر أو ثورة صنهاجة. أما أبوه فهو شموئيل هلفي بن يوسف هنجيد[8]. ولد في مريدا الأندلسية

---

[1] "رسالة في الرد على بن النغريلة"، ضمن رسائل ابن حزم تحقيق إحسان عباس، ج3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981،ص 41-70.

[2] نفسه، ص 41.

[3] الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد بن حزم ، تحقيق رضا تجدد ، القاهرة ، 1971، ص 152.

[4] نفسه، ص 135.

[5] الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، حققه عبد الله عنان، المجلد1، دار المعارف، مصر، ص 447.

[6] رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، ص 7.

[7] المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد ، حققه شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1955، ص 114.

[8] تولدوت هشير هعفريت بسفراد همسلميت، (تاريخ الأدب العبري بالأندلس الإسلامية)، شيرمان ، فليشر، ماني/ مؤسسة بن زف،

سنة 993م، وتربى في قرطبة التي اضطر لمغادرتها إبان دخول المرابطين للأندلس سنة 1013م. لقد حظي شموئيل بمرتبة مرموقة خلال حكم الملك حبوس وابنه باديس من بعده حيث شغل منصب رئيس جيش غرناطة من 1030 إلى أن قضى نحبه سنة 1056.[1]

إن هذه الوظيفة المزدوجة تنعكس بجلاء في كل أعماله الإبداعية، فهو تلمودي من الطراز الأول وشاعر كبير. إنه أول شعراء يهود الأندلس الذين نظموا قصائد ذات مضامين دنيوية. والقارئ لإنتاجاته الشعرية يلحظ مدى تأثره بأغراض الشعر العربي ولاسيما الغزل[2]. لقد جمع أبناؤه قصائده في ثلاث دواوين. وينفي ابنه يوسف – الذي خلفه في منصبه الوزاري- صفة الدنيوية عن قصائد أبيه، ويعتبرها قصائد رمزية[3]، تندرج ضمن التقليد المدراشي. لقب بالأمير، ومن هنا كلمة "هنجيد" التي تعني في اللغة العبرية زعيم الطائفة، وقد تطاول ابنه يوسف من بعده على هذا اللقب[4]. إن هذه المرتبة الاجتماعية مكنتهما من لعب دور الوسيط بين الطائفة اليهودية والسلطات، محلية كانت أو مركزية.

إن لفظ نغريلة قد يكون لقبا قدحيا أي تحويرا للقب نغيد، واليهود غالبا ما ينعتون بألقاب تحقيرية لأنهم من ملة القلة بين الشعوب والأمم. وقد يكون تحوير لقب نغيد ناتجا عن اختلاف النطق في بلاد الأندلس المتميزة باختلاف الأعراق والألسن. فنطق الحروف يختلف من طائفة إلى أخرى ؛ فنطق الحروف لدا المستعربين مثلا يختلف عن نطق اليهود فهم يتكلمون لغة تسمى لادينو.

إن ابن حزم لا يذكر في رسالته الاسم الكامل لابن النغريلة وإنما يلمح إلى معرفة سابقة به. فهل يتعلق الأمر بشموئيل ابن النغريلة أم بابنه يوسف. فقد سبق أن ذكر ابن حزم في كتابه "الفصل بين الملل والأهواء والنحل" مناظرة جمعته بالأب شموئيل. لكن كل القرائن تدل على أن ابن حزم يرد في هذه الرسالة على ابن النغريلة الابن وليس الأب، فهو ينعته بالجهل وفساد الأخلاق والكذب، يقول ابن حزم: « ولعمري إن اعتراضه الذي اعترض به ليدل على ضيق باعه في العلم وقلة اتساعه في الفهم (...) فإننا ندريه عاريا إلا من المخرقة، سليما إلا من الكذب، صفرا إلا من البهت...»[5] ؛ وكان قد سبق أن أشاد ابن حزم بسعة علم الأب في كتابه الفصل ووصفه بأنه: « أعلم اليهود وأجدلهم »[6]. كما يشهد بذلك كتاب آخرون، فقد قال في حقه ابن حيان: «وكان هذا اللعين في ذاته على ما زوى الله عنه من هداية من أكمل الرجال علما وحلما وفهما وذكاء ودماثة وركانة ودهاء ومكرا وملكا لنفسه وبسطا من خلقه ومعرفة بزمانه ومداراة لعدوه »[7]. وابن بسام يقارن سيرة الابن بأبيه فيجد الفرق شاسعا بينهما سواء من الناحية العلمية أو الخلقية: «وكان من عجائب ذلك الزمان الواهي النظام، اللاعب بالأنام ترقي ذلك اليهودي المأفون الرأي، الزاري على كل ذي دين (...) وكان أبوه رجلا من عامة اليهود، حسن السيرة فيهم »[8]. إن الصفات التي ينعت بها ابن حزم مخاطبه تصدق على الابن فقط. إذن فالمخاطب في رسالة ابن حزم هو يوسف بن شموئيل هنجيد.

2) تحليل رسالة "في الرد على ابن النغريلة":

تضم الرسالة مقدمة وثمانية فصول. في المقدمة حدد الأسباب التي دفعته لكتابة هذه الرسالة, وهي

القدس، 1966.

هشيرا هعفريت بسفراد أوبيروفانس، (الشعر العبري في الأندلس وفي البروفانس)، شيرمان ، دفير و موساد بياليك، 4ج، تل-أبيب، 1981.

ITZHAKI Masha et GAREL Michel: Poésie hébraïque amoureuse de l'Andalousie à la mer rouge.

Anthologie bilingue, (Français/ Hébreu), Somogy éditions d' ART, 2000, pp 52-58.

- Jardin d'Éden, jardins d'Espagne, Seuil/Bibliothèque nationale, Paris, 1993. (Bilingue : Français / Hébreu), p. 52.

[1] NAVON Yithak: L'expulsion des juifs d'Espagne, in. Ariel, Numéro 87, Jérusalem, 1992, p. 5 .

SAENZ-BADILLOS Angel : La poésie hébraïque de l'Age d'or espagnol, in. Ariel, op. cit, p. 16-17.

[2] ITZHAKI Masha : D'Espagne à Jérusalem, Paris, 1977, pp 23-36

[3] HA-NAGUID Samuel : Diwan, éd. Dva Yarden, Jérusalem, 1956.

[4] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، المجلد 2، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1978، ص 767.

[5] الرسالة، ص 43.

[6] الفصل بين الملل و الأهواء والنحل، ص 152.

[7] الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد 1، ص446.

[8] الذخيرة في أخبار أهل الجزيرة، ص 766.

تطاول اليهودي على المقدسات الإسلامية نتيجة العداء المتأصل في قلوب اليهود للعقيدة السمحة ولرسوله الكريم (ﷺ)، قال: « وبعد فإن بعض من تقلى قلبه للعداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببغضه الرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود (...) أطلق الأشر لسانه وأرخى البطر عنانه (...) فألف كتابا قصد فيه بزعمه، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن»[1].

كما ذكر ابن حزم الكيفية التي حصل بها على اعتراضات اليهودي، فهو لم يعثر على الكتاب مباشرة بل لجأ إلى نسخة كتاب رد فيه أحد المسلمين على ترهات ابن النغريلة، قال: «فلما اتصل بي أمر هذا اللعين لم أزل باحثا عن هذا الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرني الله عز وجل عليه من نصر دينه بلساني وفهمي (...) فأظفرني القدر بنسخة رد فيها عليه رجل من المسلمين، فاستنسخت الفصول التي ذكرها ذلك الراد عن هذا الردل الجاهل وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة »[2].

أما في الفصول الثمانية فقد اعتمد فيها ابن حزم تقنية العرض والتوازي فقسم كل فصل منها إلى قسمين: في القسم الأول عرض ابن حزم آيتين اعترض بهماابن النغريلة على القرآن الكريم مدعيا أن هناك تناقض في الآيتين، وهما قوله تعالى في سورة النساء: "وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك"[3]، وقوله تعالى في نفس السورة: "ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك"[4]. ثم بين ابن حزم سبب نزول الآيتين وفسرهما مبينا تخاذل اليهودي وموضحا بالدليل القاطع زيف افتراءاته: « أنكر الله تعالى على الكفار في الآية المتلوة آنفا قولهم للنبي عليه السلام: إن ما أصابهم من سيئة فهي منك يا محمد، وأخبر عز وجل أنها من عند أنفسهم، وأن كل ذلك من عند الله تعالى، فلم يفرق المجنون بين ما أوجبه الله تعالى من أن كل من أصابته سيئة فمن نفسه، وبين ما ذكر الله تعالى من قول الكفار لمحمد صلى الله عليه وسلم: « إن ما أصابهم من سيئة فمنك يا محمد »[5].

وفي القسم الثاني عرض ابن حزم ثلاث إصحاحات من التوراة استدل بها على التناقض الصارخ الموجود في كتابهم المعظم ونبه بها مخاطبه داعيا إياه إلى الاهتمام بالتحريفات والنواقص التي يعج بها كتابهم المقدس بدل التجريح والانتقاص من قيمة القرآن وتشويه صورة النبي (ﷺ).

لقد رد ابن حزم بالعنف تارة وبالحجة ومحاولة الإقناع تارة أخرى. إن التجريح من لدن ابن حزم ناتج عن النية السيئة الواضحة في خطاب ابن النغريلة: « ولكن لو تذكر هذا المائق الجاهل ما يقرؤونه في كفرهم المبدل وإفكهم المحرف بأخرق تحريف وأنتن معان »[6].

وفي الفصل الثاني عرض ابن حزم آيتين كريمتين اعترض بهما اليهودي وهما قوله تعالى في سورة النازعات: "أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها"[7] وقوله تعالى في سورة البقرة: "هو الذي خلق ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وهو بكل شئ عليم"[8].

فسر ابن حزم الآيتين لليهودي الذي اعتقد أن الله عز وجل ذكر في الآية الثانية ضد ما في الأولى حين جعل تسوية السماء بعد خلق ما في الأرض. قال ابن حزم: « أنه تعالى ذكر في الآية التي تلونا أولا أنه عز وجل بنى السماء ورفع سمكها وأحكم الدور الذي به يظهر الليل والنهار، وأنه بعد ذلك أخرج ماء الأرض ومرعاها وأرسى الجبال فيها. وذكر تعالى في الآية الأخرى أن تسوية تعالى السماوات سبعا وتفريقه بين تلك الطرائق السبع التي هي مدار الكواكب المتحيرة والقمر

[1] الرسالة، ص 42.
[2] الرسالة، ص 42-43.
[3] سورة النساء : 78.
[4] سورة النساء : 79.
[5] الرسالة، ص 44.
[6] الرسالة، ص 45.
[7] سورة النازعات : 27-32.
[8] سورة البقرة : 29.

والشمس كان بعد خلقه كل ما في الأرض (...) فلاح أن الآيتين متفقتان يصدق بعضهما بعضا »[1].

لم يعنف ابن حزم صاحبه في هذا الفصل بقوة بل دعاه إلى الهداية واتباع الدين الصحيح، موضحا له من خلال أمثلة من التوراة التناقض الكبير البادي للعيان في كل سفر من أسفاره. إن الرد يبدو للقارئ للوهلة الأولى غير موفق فابن حزم استشهد بإصحاحات يختلف موضوعها عما طرحه اليهودي. هذا الأخير طرح قضية خلق السماوات السبع بعد خلق الأرض فيما الرد تطرق إلى موضوع التجسيم وخلق آدم ؛ وكان بإمكانه أن يستشهد بالإصحاحات الأولى من سفر التكوين، التي تحكي قصة خلق العالم والتي تعج بالمتناقضات قال ابن حزم: « ليذكرهذا الجاهل على ما يفتتحون به كذبهم المفترى وبهتانهم المختلق الذي يسمونه "التوراة" إذ يفترون أن الله تعالى خلق إنسانا مثله، ولم يكن انفرد عنه تعالى إلا بشيئين: علم الخير والشر، ودوام الخلود والحياة، وأن آدم صلوات الله وسلامه عليه أكل من الشجرة التي بها يكون علم الخير والشر (...) فساوانا في ذلك، فإن أكل من شجرة الحياة حصل على الخلد فكان مثلنا لا فضل لنا عليه »[2].

إن الفصل الثالث لا يختلف كثيرا عن الفصل الثاني، فيمكن اعتباره تكملة له، فاليهودي حاول الاستدلال على تناقض القرآن من خلال الآيات التي تتحدث عن المدة الزمنية التي خلق الله فيها العالم، وهي قوله عزوجل "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين"[3] إلى منتهى قوله في الآية نفسها "وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين"[4]، فذكر في هذه الآية خلق الأرض في يومين وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، فهذه ستة أيام، ثم ذكر قوله تعالى "ثم استوى إلى السماء وهي دخان"[5] إلى منتهى قوله تعالى "فقضاهن سبع سماوات في يومين"[6]. ثم ذكر قوله تعالى "ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام"[7].

فبعد شرح الآيات القرآنية وإماطة الالتباس وجلاء الحقيقة بأسلوب أكثر هدوءا دعا ابن حزم غريمه إلى الهداية والتوبة والدخول في الدين الحنيف. أما فيما يخص الاستدلال على تناقض كتابهم المقدس فقد اكتفى بمثال واحد وهو الإصحاح الثاني من سفر التكوين: "إن الله تعالى خلق الخلق في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع"[8].

لكن الاستشهاد من التوراة وإن كان بإصحاح يبدو أنه من موضوع مماثل ظاهريا إلا أن توظيفه للاستدلال على تناقض التوراة اتخذ منحا آخر. لقد ركز ابن حزم على التجسيم وليس على المدة الزمنية التي طرحها غريمه. إن ابن حزم في الفصل الثاني والثالث ركز أساسا على العقيدة، فاليهود يدعون عبادة إله مجرد لكن النصوص التي استدل بها ابن حزم يبدو التجسيم من خلالها جليا وواضحا. فابن حزم كان ذكيا لأن نسخ التوراة مختلفة فلو حصر الأمر في الأعداد فإن مخاطبه بإمكانه التذرع بأن النسخة التي اعتمد عليها ابن حزم مترجمة وغير أصلية ولذا فضل ضربه تحت الحزام من خلال سوق أدلة على أن الأسفار التي يدعون أنها التوراة المنزلة على موسى مزيفة لأن التوراة الحقيقية منزهة عن التجسيم.

وفي الفصل الرابع اعترض ابن النغريلة بآيتين كريمتين، قائلا وهذا تناقض عظيم. الآية الأولى هي قوله تعالى في سورة المرسلات: "هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون"[9]. وقوله عزوجل في سورة النحل: "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها"[10]. وضح ابن حزم أن الآيتين متكاملتين لا تناقض فيهما، فاليوم الذي لا ينطقون فيه بعذر إنما هو يوم إدخالهم النار، وهو أول اليوم التالي ليوم القيامة الذي هو يوم الحساب، وهو أيضا يوم جدال كل نفس عن نفسها. وبعد تفسير الآيتين رد على غريمه من خلال فحص

[1] الرسالة، ص 46.
[2] الرسالة، ص 47.
[3] سورة فصلت : 10.
[4] سورة فصلت : 10.
[5] سورة فصلت : 11.
[6] سورة فصلت : 12.
[7] سورة ق : 38.
[8] سفر التكوين : 2
[9] سورة المرسلات : 35.
[10] سورة النحل : 111.

دقيق للتوراة معيبا عليه اتباع ديانة دهرية ليس فيها ذكر أجر ولا ثواب لمحسن ولا عقاب لمسيئ في الدنيا أصلا ولا في الكتب التي ينسبونها إلى أنبيائهم معززا رأيه بحكاية ينسبونها إلى النبي سليمان تنكر البعث والحساب وتقول بتناسخ الأرواح ؛ كما ينسبون إليه أنه قال مرة "أن العالم لا أول له"[1] وأنه قال مرة أخرى "أنا كنت مع الله تعالى حين خلق الأرض والسماء"[2]. إن ابن حزم نبه خصمه إلى نواقص عقيدته والتي ينقصها ركن أساس وهو الإيمان بالبعث والحساب في الآخرة، وهذا يدل على أن ابن حزم قرأ التوراة قراءة متأنية حتى يستطيع الجزم بأن أسفار التناخ أي التوراة والكتب والأنبياء خالية من ذكر البعث والحساب. كما انتقد توراتهم المزعومة والتي ترفع الأنبياء إلى درجة الألوهية كما هو الحال مع القول المنسوب للنبي سليمان.

والفصل الخامس لا يختلف عن الفصل الثالث، فالاختلاف فقط في النبرة العنيفة التي رد بها على خصمه أثناء تفسير آيتين قرآنيتن التي اعترض بهما اليهودي مدعيا أن بينهما تناقض، وهي قوله تعالى: "فيومئد لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان"[3] وقوله في آية أخرى: "فلنسألن الذي أرسل إليهم ولنسألن المرسلين"[4]. وبعد تفسير الآيتين وجلاء اللبس دعا مخاطبه لتدبر ما في التوراة من تناقضات وافتراءات على الرسل والخالق عز وجل مستدلا بإصحاحات من سفر الخروج تنسب إلى الباري الانتقال من مكان إلى آخر وهذه ليست صفة الله تعالى وإنما هي من صفات المخلوقين وفيه التكلم فما لفم وتحقيق التجسيم والتناقض على الباري تعالى في كلامه وفعله.

وفي الفصل السادس اعترض اليهودي على القرآن بآية واحدة، وهي قوله تعالى في سورة يونس مخاطبا النبي (ﷺ): "فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك الكتاب فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك"[5]. قال اليهودي في اعتراضه: "فهذا محمد كان في شك مما ادعاه"[6]. فرد عليه ابن حزم أن المسألة تتعلق بالجهل باللغة العربية وقواعدها النحوية. ففسر له أن [إن] في هذه الآية ليست بمعنى الشرط وإنما معناها الجحد فهي هنا بمعنى "ما" مستشهدا بعدة آيات قرآنية ؛ فوضح جهل المعترض وضعف تمييزه. وكالعادة بعد عرض الآيات القرآنية التي اعترض عليها خصمه وتفسيرها قدم ابن حزم الوجه الآخر حيث التناقض صارخا وواضحا للعيان حتى يقيم عليه الحجة والبرهان مركزا كعادته على الكذب على الأنبياء ورفعهم إلى مستوى الألوهية بل أكثر من ذلك كما هو الشأن مع الحكاية التي استشهد بها وهي تحكي قصة صراع بين يعقوب والإلاه حيث تغلب عليه يعقوب.

فالخرافة التي ساقها لدليل قاطع على اختيار ابن حزم للأمثلة والحجج القاطعة حيث لايترك لمخاطبه القدرة على الاعتراض أو التأويل.

أما الفصل السابع فليس فيه جدال كبير، فقد اعترض ابن النغريلة على الآية الكريمة التي تصف العسل "إن فيه شفاء للناس"، فتساءل: وكيف هذا وهو يؤدي المحمومين وأصحاب الصفراء المحترقة؟. فرد عليه أبو محمد معيبا عليه جهله بطبائع الإنسان وبمخارج اللغة العربية. فالقرآن لم يقل: العسل شفاء لكل علة، بل قال: فيه شفاء لكل الناس. كما استدل بجالينوس وبقراط وهما عميدا أهل الطب حيث كانا ينصحان بطبخ الأشربة بالعسل. كما ذكره بما يصفون عن نبي من أنبيائهم أنه شفى أكلة في عضو إنسان بتين مدقوق وجعله عليه. فإذا كان التين فيه منافع صحية فإن العسل قد تكون فيه منافع كثيرة. وذكره أيضا بما هو مكتوب عندهم في التوراة حين مدحه أرض المقدس بأنها أرض تغدق بالحليب والعسل.

وفي الفصل الثامن والأخير عرض ابن حزم آية اعترض بها اليهودي وهي قوله تعالى: "ونزلنا من السماء ماء مباركا"[7]، قال: وكيف يكون مباركا وهو يهدم البناء، ويهلك كثيرا من الحيوان؟

---

[1] الرسالة، ص 50.
[2] نفسه.
[3] سورة الرحمان : 39.
[4] سورة الأعراف : 6.
[5] سورة يونس : 94.
[6] الرسالة، ص 53.
[7] سورة ق : 9.

فبعد تفسير الآية الكريمة انهال ابن حزم على خصمه بوابل من الأمثلة المضادة من التوراة المزعومة ومن أقوال علمائهم وأحبارهم معنفا إياه ومقدما الحجج الدامغة على سوء نيته وعلى الكذب المتأصل في أبناء ملته كالكذب على الأنبياء والرسل ناسبين إليهم أعمالا لا تليق بمقامهم كمبعوثين من عند الله ومصطافين من أجل تبليغ رسالاته.

2.1) الأبعاد المعرفية والسياسية للرسالة:

إن" رسالة في الرد على ابن النغريلة" ذات بعدين: بعد معرفي وآخر سياسي.

أ) الأبعاد المعرفية:

يتمثل البعد المعرفي في الجدل الذي خاضه ابن حزم مع أصحاب الديانات الأخرى من يهودية ومسيحية ومع خصومه المنتسبين للفرق والمذاهب الإسلامية التي لا توافق توجهه الفكري. إن هذه الرسالة جزء من الصراع الفكري الذي ميز الفترة التاريخية التي عاش فيها ابن حزم، يقول ابن حيان: « ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود الأندلس ومع غيرهم من أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة »[1].

لم يجرؤ أحد من يهود الأندلس على التطاول على المقدسات الإسلامية قبل ابن النغريلة، ويعزو ابن بسام سبب تهجم اليهودي على المقدسات إلى اضطلاعه المحتمل على كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل" حيث يجادل ابن حزم في بعض أجزائه عقيدة اليهود من خلال التوراة. كما أن ابن النغريلة كان يتطاول على جميع الملل بما فيها اليهودية مما جعله مكروها لذا يهود الأندلس أنفسهم إذ كانوا يتطيرون عند ذكر اسمه: «... ترقى ذلك المأفون الرأي، الزاري على كل ذي دين لم يسلم له يهود في دينها الملعون ولا أمنته على غيبها الظنين (...) ويتمدح بالطعن على الملل، ألف كتابا في الرد على الفقيه أبي محمد بن حزم (...) وجاهر بالكلام في الطعن على ملة الإسلام. فما دفع بتأنيب، ولا استطيع تغييره عليه إلا بالقلوب (...) واليهود مع ذلك تتشاءم باسمه، وتتظلم من جور حكمه (...) وهو مع ذلك متماد في غلوائه (...) فغصب يهود أحكامها ودلل أعلامها »[2]. وقد استهزء بالمسلمين وأقسم أن ينظم القرآن كله على شكل أشعار وموشحات يغنى بها كما رأينا مع ابن سعيد.

لقد تعرضت أجزاء من العهد القديم للانتقاد من طرف الأحبار اليهود منذ قرون، لكن أحدا منهم لم يجرؤ على الشك في التوراة إلى حدود القرن الثاني عشر الميلادي حيث شك أبراهام ابن عزرا في نسبة التوراة إلى موسى. فالنص يحكي قصة موت موسى ومراسيم جنازته وطقوسها. فاعترض ابن عزرا على هذه الحكاية إذ لا يمكن لأحد أن يكتب قصة موته ومراسيم الجنازة بعده. إلا أن ابن عزرا لم يستطع أن يتوغل كثيرا في نقده للتوراة خوفا من اليهود المتشددين. لكنه فتح الباب أمام كوكبة من الدارسين اليهود لإعمال العقل في هذا النص الأساس للعقيدة والتشريع اليهودين وتبيان تناقضاته وتنقيحه. إن ابن حزم سبق جميع الدارسين إلى دراسة التوراة دراسة نقدية فأفاض في الشك فيها وفي تبيان التحريفات التي اعترت أسفارها.

ب) البعد السياسي:

أما البعد السياسي فيتجلى في سخط ابن حزم على ملوك الطوائف من جهة وعلى النفوذ الكبير لليهود في الأندلس من جهة أخرى. فقد استهل رسالته بذم حكام عصره لعدم قيامهم بواجبهم الديني واتباعهم الشهوات وجمع الثروات وبناء القصور الشامخات، يقول في مطلع الرسالة: « اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سببا إلى انقراض أعمارهم وعونا لأعدائهم عليهم... »[3].

إن ابن حزم خص الواجبات الدينية باهتمام كبير ووضعها على رأس الواجبات التي على الحاكم أن يقوم بها. لكن ملوك الطوائف فرطوا في الدين واتخذوا أعداء الإسلام أولياء من دون المسلمين، ولذا

[1] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص 170.

[2] نفسه، ص 766.

[3] الرسالة، ص 41.

يتمنى ابن حزم في الفصل الأخير من الرسالة أن يسلط الله عذابه على كل من جعل اليهود أولياء أو قربهم إليه، يقول: « إن أملي لقوي وإن رجائي مستحكم في أن يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم وجعلهم بطانة وخاصة، ما سلط على اليهود (...) من المذلة والمسكنة والهوان والصغار والخزي في الدنيا سوى العذاب المؤلم في الآخرة »[1].

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا يطلب ابن حزم من ملوك الطوائف ألا يتقربوا من اليهود في حين قربهم بنو أمية؟ – وابن حزم أحد أنصارهم المخلصين – وأن المؤرخين يجمعون على أن اليهود ظهروا بقوة مع الدولة الأموية في الأندلس.

والسؤال الثاني الذي يطرح نفسه أيضا هو لماذا كل هذا العداء لليهود من طرف ابن حزم؟ مع العلم أنه كان يعاشرهم ويخالطهم ويحكى أنه كان «...يجلس في دكان اسماعيل بن يوسف الطبيب الإسرائيلي الذي كان مشهورا بالفراسة »[2]. وابن حزم يشهد في هذه الرسالة على أنه عاشرعددا كبيرا منهم: « فما لقيت منهم أحدا قط مجانبا للكذب القبيح على كثرة من لقينا منهم، إلا رجلا واحدا في طول أعمارنا »[3].

إن السبب الأول يكمن في كون ابن حزم من المخلصين الكبار للدولة العربية الأموية فقد كان وزيرا وابن وزير أيام الحكم الأموي بالأندلس فقد عاش تجربة تاريخية حاسمة وهي سقوط هذه الخلافة التي ارتبطت مصالحه ومصالح أسرته باستمرارها، مما جعله يربط خلاص الأندلس بعودة تلك الخلافة.

أما السبب الثاني فيتمثل في بلوغ النفوذ اليهودي ذروته أيام ملوك الطوائف. فإذا كان اليهود قد ظهروا بقوة مع الدولة الأموية بالأندلس إلا أن طموحهم العلني بدولة مستقلة لم يسجل تاريخيا إلا بعد تشردم البلاد إلى إمارات متصارعة، فاستغل اليهود هذا الوضع للوصول إلى المراكز الحساسة في البلاد كالجيش والوزارة والجباية وديوان الكتابة فكان لهم تأثير كبير في القرارات المصيرية بالإمارات. يقول ابن عذارى المراكشي: « فأمضى باديس وزيرا له وكاتبا (...) اسماعيل ابن نغرالة اليهودي على وزارته وكتابته وسائر أعماله ورفعه فوق كل منزلة فاتخذ هذا اليهودي عمالا ومتصرفين في الأشغال واكتسبوا الجاه والمال في أيامه واستطالوا على المسلمين (...) وترك ابنا له اسمه يوسف (...) فأخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال واستخراج الأموال واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال فزادت منزلته عند أميره باديس وكانت له عيون عليه في قصره من نساء وفتيان (...) فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجري في منزله (...) إلا ويعلم اليهودي ذلك »[4].

لقد لجأ اليهود إلى المكر والخديعة والإيقاع بين الأمراء المسلمين لإقامة دولة في بلاد الأندلس الإسلامية وزعيم هؤلاء هو الوزير يوسف بن النغريلة الذي حاول إنشاء دولة خالصة لليهود في إمارة ألميرية الأندلسية وقد أبرم اتفاقا مع ابن صمادح يسلمه حكم غرناطة ويترك له ألميرية ليجعلها قاعدة انطلاق دولة يهودية. كما يؤكد ذلك المؤرخ ابن عذارى المراكشي: «وذلك أن هذا اللعين يوسف بن النغريلة طلب أن يقيم لليهود دولة فدس إلى ابن صمادح صاحب ألمرية في السر أن يدخله غرناطة ويكون اليهودي في المرية... »[5].

إن ابن حزم كان على علم بالنفوذ السياسي لليهود وقد اختار أن يتوجه إلى العامة لتحريضهم ضد ذلك النفوذ لذا صب جام غضبه منذ مطلع الرسالة على ملوك الطوائف الذين مكنوا لليهود في أرض الإسلام مبررا ذلك بتخاذل الحكام وانعدام الحس الديني عندهم وعدم القيام بواجبهم الشرعي. فلولى هذا التخاذل ما تجرأ ابن النغريلة على مهاجمة المقدسات الإسلامية: « اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل ملتنا بدنياهم (...) حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة، وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همنا، لأنهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للديانة الزهراء والحمية للملة الغراء، ثم هم متردون بما يؤول إليه إهمال هذا الحال من فساد

[1] نفسه، ص 67.
[2] رسائل بن حزم، ص 17.
[3] الرسالة، ص 57.
[4] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص 264-265.
[5] نفسه.

سياستهم والقدح في رياستهم (...) سيما إذا كان العدو من عصابة لا تحسن إلا الخبث مع مهانة الظاهر (...) أطلق الأشر لسانه وأرخى البطر عنانه، واستشمخت لكثرة الأموال لديه نفسه المهينة، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيرة »[1].

وأمام صمت الأمراء عن نصرة دينهم والوقوف في وجه الوزير المتغطرس فإن ابن حزم جند لسانه وقلمه للدفاع عن المقدسات ودعوة الناس إلى الثورة عليه والقصاص منه: « فلما اتصل بي أمر هذا اللعين لم أزل باحثا عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرني الله عز وجل عليه من نصر دينه بلساني وفهمي، والدب عن ملته ببياني وعلمي، إذ قد عدمها، والمشكى إلى الله عز وجل ووجود الأعوان والأنصار على توفية هذا الخسيس الزنديق المستبطن مذهب الدهرية في باطنه، المتكفن بتابوت اليهودية في ظاهره، حقه الواجب عليه من سفك الدماء واستيفاء ماله وسبي نسائه وولده (...) وبراءته من الذمة الحاقنة دمه المانعة من ماله وأهله، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[2].

ولم يتصد ابن حزم للنفوذ اليهودي وغطرسة ابن النغريلة وحده فقد قام بعض شعراء المسلمين في الأندلس بالتصدي له ومن أشهر الشعراء الذين واجهوا ابن النغريلة شاعر غرناطة الزاهد أبو إسحاق الإلبيري (375هـ- 460هـ) الذي كتب قصيدته النونية المشهورة محرضا عليه الصنهاجيين داعيا إلى تخليص الأندلسيين من شره وأنحا باللوم على بادس بن حبوس لتوليته إياه رغم وجود الأكفاء من المسلمين:

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة أقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى فحان الهلاك وما يشعرون[3]

فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور.

قراءة وتأويلا. فكان مشروع الدكتور حسن حنفي المتمثل في الرؤية التجديدية في قراءة التراث محاولة أراد بها ان تكون طريقا ثالثا بين العلمانية والسلفية، وأن يكون مشروعا يواكب تطورات واقعه العالمي والعربي.لكن اتساع مشروعه وتضخّمه صعوبة تطبيقه أوقعه في المثالية ولكنّها مثالية لها خصوصيتها على اعتبار أنها ليست من أنواع المثاليات الحالمة، بل هي مثالية متجذّرة في تاريخ الأمّة وفي الواقع، فهي تنطلق من الواقع لتغييره.

[1] الرسالة، ص 41-42.
[2] نفسه، ص 42-43.
[3] ديوان أبي إسحاق الألبيري، تحقيق غومس، مدريد، 1944، ص 151.